صورة . . .

صديقى «شوكت» هذا لا أراه إلا لماما ، وكيف أظفر به وهو لاينقطع تقلقله واضطرابه . . . أبواه يدللانه ويرهبانه ، وهو يفرّ منهما ليقيم وحده فى غرفة صغيرة على سطح الدار ، يستيقظ مع الشمس فينـدس فى ثيابه ، ثم يتدهور على الدرج كأنه نجاسة تركلها أقدام طاهرة . . . حتى إذا خرج إلى الطريق خفّ خطوه وبدأ تسكعه . . . وعندئذ لا مفرّ من أن نودعه — وإن كانت الساعة لا تزال مبكرة — فهيهات للمخيلة أو للمنطق أن يفلحا فى تتبعه بعد ذلك ولو كنت به خبيراً . . . فهو قد يفطر فولا وطعمية فى سيدنا الحسين ، أو بيضاً مسلوقاً ولحماً بارداً فى مطعم بجوار المحكمة المختلطة . هو يدخل السينما لينـام ، وقد يقضى أكثر الليل ساهراً فى مقعد على شطّ النيل .

استمع إليه يحدثنى ذات يوم : —

— اننى أتعلم كثيراً من دراسة معارض المصورين الفوتوغرافيين ، وأقف ساعات أمام سكانها المجهولين أتفرس وجوههم طويلا . وهذا دأبى منذ زمن بعيد . . . دع عنك مصورى البطاقات الشخصية ، فعملهم نوع من التأتأة . . . ولا أقصد مصورى الأحياء الإفرنجية ، فليس بينى وبين معارضهم وشيجة روحية ، وخاصة فى هذه الأيام التى أصبحت فيها كأنها ثكنات جنود . . . أما المصريون الذين يظهرون فيها بزىّ رسمى أو غير رسمىّ فأغلب وقفاتهم متكلفة : على الشفاه ابتسامة حائرة بين فرحة الفوز والاعتذار من الغرور . هؤلاء أناس قد تمرنت أقدامهم وأيديهم لطول بطالتها . . . أما أصدقائى فهم زبائن مصورى الأحياء الوطنية . كنت أعرفهم فيما مضى يشخصون بأبصارهم إلى العدسة ويحملقون فيها كأنما يتوقعون منها مفاجأة . . . أذرعهم متصلبة ، وأيديهم حائرة ، فهى إما مستقرة على الركبتين ، أصابعها تارة منفرجة وتارة مضمومة ، أو ملصقة بأفخاذهم وأصابعها ممدودة كوقفة صاحب الحلة الجديدة أمام الخياط فى

أول تجربة . إثبات الود بين الصديقين أن يتصافحا أمام العدسة ، وبعضهم يرفع يده إلى رأسه يحييك أنتَ والمصوّر والعالم كله . . . أما الفتيات فكالنباتات البرية لا تزال بشوكها . لا تضحك من أحذيتهن أو لتسريحة شعرهن ، بل انظر إلى العيون ترجذلا فطريا وفرحة الطفل بلعبة جديدة . أما إذا اعتمدت إحداهن برأسها على كفها فوق المائدة ، وتاهت نظرتها ، ومن خلفها ستار عليه رسم زهرية كبيرة أودرج نخم ، فاعلم أنها بنت مدارس ابتليت — والبركة فى القصص الغرامية — بداء الحب . . . كان ذلك فيما مضى . أما اليوم فقد كثر بين أصدقائى من يقلد كلارك جيبل أو بيتى جريبل . . . بعض هؤلاء الناس يثبتون فى أماكنهم لايتحولون عنها ، يوجهون إليك نفس النظرة سنين طويلة — كأنهم قطع متخف ، وبعضهم — كما فى عالم الأحياء — يظهر حيناً ثم يختفى ويحل غيره محله . وهذا يذكرنى بحادثة عجيبة لم أستطع نسيانها إلى اليوم .

صمت شوكت ، وقد تعلمت ألا أستدرجه ، فصبرت حتى واصل الحديث فهو ممن لايطيقون كتمان السرّ ، ولو كان أمراً يشينه . . .

هو مصوّر فى ميدان من أهم ميادين القاهرة ، كل زبائنه من الأغنياء ، لايتم لهم عرس إلا إذا جاءهم قبل المأذون ، وكأنهم لايتثبتون من معرفة أطفالهم إلا إذا رسمهم لهم . . . كنت أسير غير ملق بالى إليه ، وإذا بشىء يجذبنى جذباً وقد التفت فسحرتنى نظرة نفاذة كأنها تيار كهربائى ، تنطلق من عينى فتاة جميلة ، ارتدت — ولا أدرى لماذا — خمارا أسود . هل يكون تصنع الحزن من بعض الدلال ؟ ومع ذلك هيهات ! فالنظرة تنطق بالصبا المتلهف إلى اللذة والمرح والبهجة ، يؤججه جسد زاخر بالحياة ، يسكنه عفريت لعوب . تتموّج على الشفاه ابتسامة كاهتزاز أوراق الشجر يداعبها نسيم الغروب . سرت قليلا ثم وجدتنى أعود إليها ماذا تريد منى ؟ وماذا تريد أن تقول ؟ لم أستطع الانفكاك من سحر تلك النظرة ، ومع ذلك أحسست فى جسدى بشعور خفىّ لم أتبينه حينذاك ولكنه تركنى ضيّق الصدر مكروباً . مالى ومالها ؟ هى فتاة مغرورة تتباهى بجمالها وبصورتها الفخمة ، تريد أن تخلد فيها خيال مرآتها الفانى . ولكن لا ! إنها ليست نظرة موجهة إلى نفسها ، بل هى موجهة إلى غيرها ، إلى إنسان ، أياً كان .

أصبحت أقصدها وأقف عندها ولا أمرّ فى ذلك الطريق إلا سامت عليها

وسألتها عن أخبارها . إن نشوتها تبرد القلب ، وسعادة الصبا تقلم أظفار الحسد وإن رغم أنفه ، وتقلب حسرة الشيوخ رضا وذكريات وأحلاما . . . ومرت أيام وأنا أتوقع أن أراها ، كما رأيت كثيرات غيرها ، مستندة على ذراع عروسها فى ثوب أبيض ، له ذيل طويل طويل . انتظرت ظهور هذه الصورة أياماً بعد أيام ولكن سدى . . . وظلت نظرتها تثب من وراء الألواح الزجاجية وتختلط بالمارة كأنها تريد أن تتشبث بإنسان من الناس .

ثم اختفت . وكرت الأسابيع والشهور ، فإذا بى أجدها من جديد . مرحباً ! مرحباً ! ولكن ما هذا ؟ خلعت خمارها فبدأ لها شعر أسود فاحم فى أجمل زينة . وارتدت ثوباً وسطاً بين ثياب السهرة وثياب النهار ، حول عنقها عقد تعمد المصور أن يظلل واسطته لئلا تتبينها العين ، بل تدرك أنها ثاوية بين يديها ويلتصق بأذنها قرط على شكل زهرة . إنها اليوم لا تنظر إلى المارة . بل انصرفت عنهم قليلا ، فهى تريد ولا تريد أن تقع العين على العين وكفاها أذنها التى مالت بها قليلا نحونا كأنها تريد هذه المرة أن تسمع ما نقوله عنها ، قد لوحتها الشمس — فقد كنا فى نهاية الصيف — وكأنها تسر إليك : « إننى كنت على الشاطىء ثم عدت إلى القاهرة » تطلعت إلى الصورة من اليمين ومن اليسار لعلنى أظفر بنظرتها التى سحرتنى فلم أفلح . ماذا دهاكِ ؟ ولِمَ تشيحين بوجهك ؟

وثبتت الصورة مكانها زمناً طويلا ، من حولها جيرانها وعالم المارة وموكب الحياة يدور ويدور كأنه رحى طاحون .

وتتابعت الفصول . . .

استدارت وارتدت ثوب سهرة يكشف عن واسطة العقد ومثواها معاً . وتركت شعرها ينسدل على كتفيها وواجهتنا من جديد بنظرة فيها تحدٍ واعتداد وكبرياء وشموخ . العين مزججة بالكحل ، والشفة أرجوانية بل سوداء ، وكأنها ندية . . . لما رأيتها تلك المرة أدركت الشعور الذى انتابنى حين لقيتها اول ما لقيتها . يا لله لهذا الفم ولتلك الثنايا . . . فم واسع عريض ، كأنه مدقة بئر مهجور . . . وشفتان غليظتان تكشفان عن ثنايا مفلحة أى شىء لا يقدر عليه هذا الفم المتعطش من لثم وتقبيل وما يتلوها من ثورات عنيفة لا أريدك بها علماً . شهوة عارمة جامحة ، مقيدة بأغلال . تذكرت . لقد شعر جسدى حين لقيتها أول مرة بذلك الإحساس الذى كان يعترينى وأنا صبى ، عند ما كنت أمر

على بعض الأزقة فأبصر بألعات الهوى يعرضن أجسادهن للناس . كنت أتمزق : يدفعنى الشوق ، ورغبة الافضاء ، والغوص فى لجة الحياة ، وتصدنى دمامة الفساد يبخرها ونتنها وقروحها . لقد كان القبح مجسما جاثماً على فم هذه الفتة . قبحٌ يثير فى النفس اشمئزازها ، ويهب عليها منه ريح حارة كالسموم . عندئذ عزمت على الفرار منها ، وهجرها وعلى أن لا أعود إليها .

***

ومرت أيام فى أثرها أيام . . . ثم لقيت صديقى شوكت مصادفة على قهوة فى شارع عماد الدين ، وأمامه حبات قليلة من الفستق ، هى كل ما كسبه بثلاثين قرشاً دفعها فى مراهنة بائع صعيدى مكار . وقال لى :

— اننى لا أخسر إلا إذا كنت مضطرب الأعصاب ، ولا تأس علىّ . فقد كسبت منه مرة أقة كاملة بقرش واحد . فخذ اثنتين ، ودع لى اثنتين ، وأرجوك ألا تلح على أن أسير معك فلست الليلة خالى البال . لقد كنت أكذب عليك ، وإنى أخبرك الآن أننى عدت إليها . أيكون للقبح سحره أيضاً لأنه يجعلنا — إذا ما انقضى — أكثر قدرة على تذوق الجمال ؟ أم لعل القبح هو مبدأ الخليقة التى فرض عليها أن ترقى منه — بمجهودها — قليلا قليلا حتى تدرك الجمال . فسحر القبح نوع من الحنين إلى الماضى . ولكن حالى مع هذه الفتاة على خلاف ذلك . فلا يهمنى وجهها ، إن الذى يعنينى هو روحها . إنها لا تزال مكانها ، تمر أمامها هذه الجموع الغفيرة وليس فيها قلب واحد فهم آلامها ورثى لها . إننى ألمس عذابها ولياليها الساهرة ، وابتساماتها التكلفة تتظاهر فيها بالسرور وقلبها مغموم . هى يد ممدودة لاتجد من يمد لها يداً . صدقنى . إننى أمرّ عليها فأجد نور عينيها ينطفئ يوماً بعد يوم كاحتضار المشكاة . ستقول إن الصور تشحب عادةً من طول تعرضها لأشعة الشمس ، ولكن اذهب بنفسك وشاهدها تجدها وحدها دون بقية الصور قد خيست عليها ظلال كالعنكبوت ، بل أكاد ألمح على وجهها خطين متعارضين كأنهما لطمتان ، أو علامة الإلغاء على مسألة مغلوطة . . . ستقول أيضاً إن هذا من أثر تثنى ورق الصورة لتقدم عهده بالمعرض . ولكن ثق أن قلبى صادق فى شعوره . بل إننى أكاد أجزم باقترابها من كارثة نازلة . ولو ذهبت إلى رجال الإسعاف وقلت

لهم : « اسرعوا ! لعالوا أدركوا فتاة دهمها خطر شديد ، فقد أصيب قلبها بجرح بليغ وتوشك أن تتحطم ، فعساكم تنقذونها كما تنقذون غيرها » لسخروا منى وعدونى مخبولا . . . وانصرفوا عنى أنا أيضاً فليس للخبل عندهم دواء .

وكانت قصة رهان صديقى قد ذاعت ، فتألب علينا بائعو السميذ والفستق واليانصيب وماسحو الأحذية والشحاذون فانقطع الحديث .

***

وذات ليلة من ليالى الشتاء الماضى عدت إلى دارى متأخراً ، فوجدت « شوكت » بالباب ينتظرنى ، لايأبه للبرد ولا للمطر . ولم يكد يرانى حتى صرخ فىَّ قائلا :

— أين كنت ؟ لقد بحثت عنك طويلا . إننى أريدك معى هذه الليلة . لاتتركنى .

هو مخمور ، لسانه ثقيل ، وعيناه محمرتان .

— لقد رأيتها اليوم فى ذهابى إلى القهوة ، وأقسم لك أن نظرتها أصبحت أشد لمعاناً كأنها نصل خنجر . . . وارتسم فيها الغل والغيظ والقنوط والألم معاً . . . تتلفت إلى المارة ، وإلى جيرانها بنظرة ملؤها السخط والاحتقار . انقشعت الظلال ، وزال الخطان وتهيأت لأمر ، قد أطبقت أجفانها قليلا وضمت شفتيها وبدا على خديها غضون عميقة . . . ثم عدت بعد ساعتين فألفيت أمام المعرض زحاماً شديداً ، والزجاج مهشما متناثراً ، والصور ممزقة تحت الأقدام فى الوحل . . . بحثت بينها عن صورتها فلم أجدها . . . قال لى بائع جرائد إنه سمع صوت تكسر الزجاج كأنما أصابته رصاصة . ولم ير أحد شيئاً . وقالوا لعله جندى عربيد قذفه بزجاجة خمر . ولكن هذا كلام لا يدخل عقلى . . . إن هاتفاً يهتف بى أن هذه الفتاة قد انتهت . . . سقطت أو انتحرت . وأن قلبها قد حطم أغلاله وانفجر .

يحيى حقى